قيل : المراد بالسفهاء ـ ههنا مشركوا العرب قاله الزجاج وقيل : أحبار يهود قاله مجاهد وقيل : المنافقون قاله السدي والاية عامة في هؤلاء كلهم وا أعلم قال البخاري : أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن أبي إسحاق عن البراء Bه : أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون قال : أشهد با لقد صليت مع النبي صلى ا عليه وسلّم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل ا { وما كان ا ليضيع إيمانكم إن ا بالناس لرؤوف رحيم } انفرد به البخاري من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن إسحاق : حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر ا فأنزل ا { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام } فقال رجل من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل ا { وما كان ا ليضيع إيمانكم } وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل ا { سيقول السفهاء من الناس } إلى آخر الاية وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل ا { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام } قال : فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود { ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها } فأنزل ا { قل المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم لما هاجر إلى المدينة أمره ا أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول ا صلى ا عليه وسلّم بضعة عشر شهرا وكان رسول ا صلى ا عليه وسلّم يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو ا وينظر إلى السماء فأنزل ا D : { فولوا وجوهكم شطره } أي نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل ا { قل المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الأمر أنه قد كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين

الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره ا بالتوجه إلى بيت المقدس قال ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين ؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري : إن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام والمقصود : إن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه صلى ا عليه وسلّم المدينة واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب رسول ا صلى ا عليه وسلّم الناس فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر كما تقدم في الصحيحين رواية البراء ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر وقال : كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم : أن تحويل القبلة نزل على رسول ا وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك في مسجد بني سلمة فسمي مسجد القبلتين وفي حديث نويلة بنت مسلم : أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قالت : فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر Bهما أنه قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء وا أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا { ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها } أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ؟ فأنزل ا جوابهم في قوله { قل المشرق والمغرب } أي الحكم والتصرف والأمر كله { فأينما تولوا فثم وجه ا } و { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن با } أي الشأن كله في امتثال أوامر ا فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة : فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات ا وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت ا في الأرض إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : { قل المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } .

وقد روى الإمام أحمد عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن

الأشعث عن عائشة قالت : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم يعني في أهل الكتاب : [إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا ا لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا ا لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام : آمين] .

وقوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال : قريش أوسط العرب نسبا ودارا أي خيرها وكان رسول ا صلى ا عليه وسلّم وسطا في قومه أي أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها : ولما جعل ا هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى : { هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس } وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته قال فذلك قوله : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا } قال : والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم] رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول ا A [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا] فذلك قوله D { وكذلك جعلناكم أمة وسطا } قال : عدلا { لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي A في قوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا } قال عدلا وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الأشجعي عن المغيرة بن عتيبة بن نباس حدثني مكاتب لنا عن جابر بن عبد ا عن النبي A قال : [أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه D] وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضا واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبد ا قال : شهد رسول ا A جنازة في

بني مسلمة وكنت إلى جانب رسول ا A فقال بعضهم : وا يا رسول ا لنعم المرء كان لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول ا A : أنت بما تقول فقال الرجل : ا يعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال النبي A وجبت وجبت ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول ا A فقال بعضهم : يا رسول ا بئس المرء كان إن كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا فقال رسول ا A لبعضهم : أنت بالذي تقول فقال الرجل : ا أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال رسول ا A : وجبت قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول ا A ثم قرأ { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } ثم قال الحاكم : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي الفرات عن عبد ا بن بريدة عن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خيرا فقال : وجبت وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شرا فقال عمر : وجبت فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين قال قلت كما قال رسول ا A [أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله ا الجنة] قال : فقلنا وثلاثة قال : فقال [وثلاثة] قال : فقلنا واثنان : قال [واثنان] ثم لم نسأله عن الواحد وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات به وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشي حدثني أبو الوليد حدثنا نافع بن عمر حدثني أمية بن صفوان عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال : [سمعت رسول ا A بالنباوة يقول : يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم قالوا : بم يا رسول ا ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء أنتم شهداء ا في الأرض] ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به .

وقوله تعالى : { وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى ا } يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه أي مرتدا عن دينه وإن كانت لكبيرة أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة أي وإن كان هذا الأمر عظيما في النفوس إلا على الذين هدى ا قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه وأن ا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق كما قال ا تعالى : { وإذا ما

أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم } وقال تعالى : { وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا } ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول A واتباعه في ذلك وتوجه حيث أمره ا من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين وقال البخاري في تفسير هذه الاية : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد ا بن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال : قد أنزل على النبي A قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري وعنده أنهم كانوا ركوعا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله وهذا يدل على كمال طاعتهم ولرسوله وانقيادهم لأوامر ا B Dهم أجمعين .

وقوله : { وما كان ا ليضيع إيمانكم } أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند ا وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل ا تعالى : { وما كان ا ليضيع إيمانكم } ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه وقال ابن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس { وما كان ا ليضيع إيمانكم } أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى أي ليعطيكم أجرهما جميعا { إن ا بالناس لرؤوف رحيم } وقال الحسن البصري { وما كان ا ليضيع إيمانكم } أي ما كان ا ليضيع محمدا A وانصرافكم معه حيث انصرف { إن ا بالناس لرؤوف رحيم } وفي الصحيح أن رسول ا A رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها فقال رسول ا A [أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه] ؟ قالوا : لا يا رسول ا قال : [فوا أرحم بعباده من هذه بولدها]